

النظريات حول الأصول العرقية لسكان السودان القدماء في منطقة النيل الأوسط (الهوية السودانية في ظل الاكتشافات الأثرية الحديثة)

سامية بشير دفع الله
كلية الآداب - جامعة الخرطوم

مستخلص:

تتحدث هذه الورقة عن النظريات التي تناولت الأصول العرقية لأهل السودان القدماء الذين سكنوا المنطقة بين الشلالين الأول والسادس من النيل خلال الفترة من 4000 ق.م. وإلى 550م. تبدأ الورقة بمقدمة عن مفهوم الأعراق فتذكر أن المصطلح استخدم في البداية لتصنيف الجنس البشري بشكل عام، لكنه تطور ليتخذ أبعاداً اجتماعية في وقت لاحق. جرى في المنطقة موضوع البحث كثير من التنقيب الأثري منذ العام 1907 وحتى الآن. اكتشفت حضارات يمكن مقارنتها مع الحضارة المصرية الفرعونية من حيث المستوى لكن بعناصر واتجاهات محلية سودانية. هذه النتيجة لم يكن يتوقعها المكتشفون، الذين كانوا إما أمريكيين أو أوروبيين، لأن هياكل السكان أوضحت أنهم ليسوا بقوقازيين، وربما كانوا أفارقة. وبحسب نظرية الأعراق الثلاثة التي كانت سائدة في الغرب فإن الأفارقة غير مؤهلين فطرياً وغير قادرين على صنع أي حضارة. للخروج من هذا المأزق دمج الغربيون نظريتين: الأولى تقول إن سكان المنطقة خليط من العرق الأبيض (القوقازي) والعرق الأسود (الزنجي). الثانية تقول بل هم خليط من الجنس البني والجنس الزنجي. وفي النظريتين كانوا ينسبون للحكام للجنس الأبيض والبني. مع تقدم العلم والتكنولوجيا في الغرب ظهرت فئة من العلماء انتقدت منهج أصحاب النظريتين السابقتين في اعتمادهم على عينات محدودة من البقايا العظمية، وعدم استخدامهم مادة مقارنة من مواقع متقاربة. وأبدت هذه الفئة تأثرها بنظرية التطور والارتقاء ورفضها لنظرية الخليط العرقي. أصحاب النظرية الرابعة ساروا في نفس الاتجاه الأخير من حيث تأثرهم بنظرية التطور في تفسير التغيرات التي تطرأ على البنية السكانية للمجتمعات، لكنهم في الوقت ذاته تأثروا بمخرجات علم الوراثة الحديث. هؤلاء ذهبوا إلى أن سكان منطقة النيل الأوسط القدماء هم نوع أساسي ومميز ظل يسكن المنطقة نفسها بدون انقطاع منذ خمسة آلاف سنة على الأقل وربما أكثر من ذلك. وأضافوا أنهم كانوا يشبهون إلى حد كبير سكان المنطقة الحاليين.

مقدمة

المفهوم العام للأعراق : الجنس البشري (species) فيه تنوع واختلاف نتيجة لتوزعه في الكون. ومصطلح "أعراق" أو "أجناس (Races)" بدأ استخدامه كمسمى عام يطلق على مجموعات كبيرة من البشر متميزة عن بعضها البعض بخصائص مورثة (genetically transmitted) تميزهم عن غيرهم من المجموعات، وعلى أفرع الجنس البشري التي تشترك في كونها من أصل بيولوجي واحد، هو الإنسان العاقل (*Homo Sapiens*). ولقد ثبت علمياً أنه لا يوجد أساس بيولوجي أو جيني للأعراق، وأن الخصائص المورفولوجية التي ارتبطت تقليدياً واجتماعياً بالعرق (كلون البشرة ومنسوج الشعر، إلخ) ليس لها أي علاقة بخصائص الذكاء والموهبة والقدرات¹.

تطور مفهوم الأعراق:

خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بدأ البعض يربط بين العرق وبين النظريات والأيدولوجيات في علم الأنثروبولوجيا الطبيعية (علم الإنسان الطبيعي physical anthropology)، فظهرت بشأنه العديد من النظريات كان أكثرها تأثيراً "نظرية الأعراق النقية". يزعم أصحاب هذه النظرية أنه في وقت مبكر بعد ظهور الإنسان على وجه البسيطة، كان هناك عدد محدود من الأعراق تعيش منعزلة جغرافياً عن بعضها البعض، مما مكّنها من المحافظة على خصائصها والاستمرار في العيش لفترة طويلة كمجموعة متجانسة. ويزعمون كذلك أنه كانت لكل عرق عائلته اللغوية وأنماطه الثقافية الخاصة به. ولم تحدد النظرية كم عدد الأعراق النقية، لكننا نجد معظم علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية يهتمون بثلاثة أعراق، هي: القوقازي (الأبيض) وسكن قارة أوروبا، والمنغولي (الأصفر) وسكن قارة آسيا، والزنجي (الأسود) وسكن قارة إفريقيا جنوب الصحراء. تمضي النظرية وتزعم أنه بمرور الزمن تمددت هذه الأعراق في مساحات أوسع، واختلطت فيما بينها، الأمر الذي نتج عنه أعراق فرعية عديدة كما هو حاصل الآن (تريقر، 27، 1978: Trigger). وزعم أصحاب هذه النظرية أن العرق الأبيض (القوقازي) هو العرق الأفضل والمهياً فطرياً لصنع الحضارة والتطور. هذا الاعتقاد أدى إلى النظرة الدونية لجماعات من الشعوب البيضاء تجاه أفراد الجنسين الآخرين، وبالأخص تجاه السود في إفريقيا والهنود الحمر في أمريكا والأستراليين البدائيين في أستراليا والشعوب الصفراء في آسيا. وقد تطورت النظرة الدونية عند بعض البيض لبغض وكراهية لدرجة أنها أصبحت ظاهرة صارت

¹ . McCulloch.R " Races of Humanity " <http://www.racialcompact.com/racesofhumanity.html>

² . يطلق عليها البعض مسمى العنصرية.

تعرف بالعرقية (Racism)². وفي بعض المجتمعات الأوروبية وجدت قوانين وتشريعات تبرر استغلال البيض للسود وتقنن للتمييز بينهما، بل وتبرر استعمار بلادهم واستعباد شعوبها. بعد ظهور نظرية النشوء والارتقاء عام 1859 القائلة بأن الأنواع الحية يمكن أن تتغير وتتطور من خلال تكيفها مع بيئاتها المختلفة، ضعفت نظرية الأعراق الثلاثة علمياً لكنها لم تضعف اجتماعياً. وفي الخمسينات من القرن الماضي ابتدع بعض العلماء نظرية الأعراق الجغرافية، قسمت بموجبها البشرية لتسعة أقسام منتشرة في كل القارات، لكنها لا تتناظر معها.³

خلال فترات الحكم التركي المصري، والمهدية، وفتره الحكم الإنجليزي المصري في السودان، لعبت العرقية دوراً مهماً في تبرير تجارة الرقيق التي لم تتوقف إلا بعد صدور القوانين من بريطانيا بالغائها. وبالرغم من ذلك لم تنتفِ كل مظاهر العرقية من السودان المعاصر؛ فبقيت منها آثار يعلمها الجميع، لا نود الخوض فيها. واليوم أصبحت آثار العرقية تشكل موضوعاً مثيراً للجدل والنقاش في المحافل الثقافية مثل المؤتمرات والندوات التي تكون الهوية السودانية من ضمن محاورها، كما كان لها انعكاساتها السياسية. وقد كانت منطقة شمال السودان - والتي هي موضوع هذه الورقة - من المناطق التي تعرّض سكانها لكثير من الانتقاد، بل والاتهامات بأنهم يرفضون حقيقة اختلاط أسلافهم بالأفارقة، بينما يفتخرون بانتماءاتهم العرقية العربية، رغم أنها لا تجد اعترافاً من عرب الشرق الأوسط، مما خلق لديهم مشكلة هوية حقيقية (أحمد، 2009).⁴

من ناحية أخرى لاحظت الكاتبة أن معظم ما كتب عن هذه المنطقة وسكانها يتناول حقبة تاريخية حديثة نسبياً، لا تتجاوز تاريخ دخول الهجرات العربية الكبرى للسودان في القرن الرابع عشر الميلادي. الورقة التي تتقدم بها الكاتبة الآن ستتناول حقبة قديمة من تاريخ السودان تبدأ بحوالى 4000 ق.م وتنتهي بقيام الممالك النوبية المسيحية حوالى سنة 550 م. سبب اختيار الكاتبة لمنطقة النيل الأوسط⁵ - والمقصود بها المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والسادس وما جاورهما من سهول وصحارى - هو تميزها عن غيرها من الأراضي السودانية بوصول بعثات التنقيب العلمي إليها منذ العام 1907 وحتى الآن. وكما تعلمون فإن بعثات التنقيب كانت تصطحب في معيتها خبراء في علم الأنثروبولوجيا الطبيعية (physical anthropology) يدرسون المادة العظمية في مواقعها. وأحياناً

³ . في كل هذه النظريات واجهت علماء علم الإنسان الطبيعي مشكلات عديدة أفتعت مجموعة منهم بعدم جدوى اعتماد تصنيفات مبنية على الخصائص الجسدية، وخلصوا إلى أن دراسة التنوع البشري أجدى من مجرد وضع علامات جسدية محددة على جماعات البشر. ومن ثم تبوّأ بدائل أخرى للنظم التقليدية لتصنيف الأجناس، أبرزها ما يعرف بالمدخل الممالي أو الكلايني والمدخل العشائري.

⁴ <http://www.sudanile.com/2009-09-03-11-01-55/8281-2009-12-08-11-59-58.html>

أخرى كانت الهياكل البشرية تؤخذ لتتم دراستها وفحصها في معامل خارج السودان، سواءً في أمريكا أو أوروبا.

بعد هذه المقدمة ننتقل لاستعراض أهم النظريات التي طرحت فيما يتعلق بأعراق سكان منطقة النيل الأوسط، وسنهتم بأربع نظريات.

1. النظرية الأولى: نظرية اختلاط العرقين المصري والزنجي

وهي نظرية تزعم أن سكان المنطقة موضوع الدراسة، وبخاصة في النصف الشمالي منها، كان خليطاً من الجنسين القوقازي والزنجي. من الطبيعي أن يتبنى هذا التفسير علماء يفكرون بمفهوم الأعراق النقية. لكن أصحاب هذه النظرية لم يتفقوا حول العرق الأصلي في المنطقة قبل الاختلاط ما إذا كان زنجياً أم قوقازياً، كما لم يتفقوا حول التوقيت الذي وصل فيه الزوج للمنطقة. كثيرون منهم قالوا بحدوث نزوح لشعوب زنجية للمنطقة من خارجها في نهايات الفترة المروية نتج عنه منذ ذلك الوقت ازدياد في درجة الزنوجية وسط السكان.

من رواد نظرية اختلاط الجنسين القوقازي والزنجي علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية الذين درسوا وفحصوا هياكل بشرية خرجت مع تنقيبات العقدين الأولين من القرن الماضي أمثال إيليوت سميث، ودوقلاس ديري وهيرمان يونكر. وبالرغم من أن كثيراً من العلماء الذين جاءوا بعدهم وبعض المعاصرين تخلوا عن فكرة وجود أعراق نقية في أي وقت من الأوقات، بل إن بعضاً منهم يؤمن بفكرة عدم وجود أعراق أصلاً - بالرغم من ذلك ما زالت هناك حتى الآن فئة تفسر تاريخ السودان البشري مستندة على ذات المفاهيم القديمة. في الفقرة التالية سنتناول الآراء التي طرحها إيليوت سميث وهيرمان يونكر حول الأصل العرقي للمجموعة السودانية الأولى (أ) والمجموعة السودانية الثانية (ج).

الدراسات المتعلقة بأصل المجموعتين (أ) و ج : سكن أصحاب هاتين الحضارتين المنطقة الممتدة من الشلال الأول تقريباً وحتى الشلال الثاني. ⁶ قامت في هذه المنطقة خلال الفترة 2700 - 3800

⁵ . في كثير من الأدبيات المنشورة، وخاصة المكتوبة بلغات أجنبية، يشار لهذه المنطقة (بين الشلالين الأول والثاني) بمسمى "النوبة السفلى" وللمنطقة بين الشلال الثاني والخرطوم بـ "النوبة العليا". لكن الكاتبة قصدت تجنب استخدام هذه المسميات لما تسببه من لبس وتشويش في أذهان القراء والمستمعين العاديين، وحتى في أذهان بعض المثقفين. سبب اللبس والتشويش أن مصطلح "نوبة/ نوبي" له أكثر من دلالة: الأولى والأكثر استخداماً دلالة إثنية لغوية يقصد بها متحدثو اللغات النوبية النيلية، ثم دلالة أخرى جغرافية يقصد بها المنطقتان المشار إليهما أعلاه وسكانها. ولا يخفى على أحد نوبا الجبال في جنوب كردفان. لذلك خشيت الكاتبة أن يذهب فكر القراء لدلالة لا تقصدها . للمزيد عن دلالات المسمى "نوبة"، انظر مقال عبدالله وآخرين: "السودان القديم، اختلاط الأسماء ودلالات المفاهيم"، ص 315-329.

ق.م. حضارة سودانية أطلق عليها مكتشفها (اسمه جورج رايزنر) مسمى "حضارة المجموعة أ"، لكن أهم مواقع هذه الحضارة (قسطل) اكتشف في الستينات بواسطة بعثة أمريكية. وخلال الفترة 2200 - 1500 ق.م. تقريباً ظهرت في المنطقة ذاتها حضارة سودانية أخرى اكتشفها الخبير نفسه وأطلق عليها مسمى "حضارة المجموعة ج". رغم وجود بعض أوجه الشبه إلا أن حضارة المجموعة (أ) كانت مختلفة عن الحضارات المعاصرة لها في صعيد مصر. واحدة من الدراسات المهمة على مخلفات المجموعة (أ) العظمية أجراها الخبير إليوت سميث (E. Smith) الذي ذهب إلى أن أصحاب حضارة المجموعة (أ) لا يختلفون من ناحية العرق عن المصريين المعاصرين لهم الذين أسسوا في صعيد مصر حضارتي نقادة الأولى ونقادة الثانية. وقد جاء وصفه لهم في إحدى دراساته (سميث، 1909، 56 & 57) بأنهم "جنس يتميز بجماجم صغيرة، عيون سوداء، شعر داكن، ويشبهون إلى حد كبير الليبيين القاطنين اليوم على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط. في بداية أمره كان هذا الشعب يخلو تماماً من أي خصائص زنجية". لكن يمضي قائلاً إن تغييراً ملحوظاً بدأ يحدث بعد ذلك في التركيبة السكانية السودانية بالتدرج نتيجة لاختلاط العرق المصري القادم من جهة الشمال بالعرق الزنجي القادم من جهة الجنوب. ويعتقد سميث ومجموعة أخرى من العلماء أن الزنوج دخلوا المنطقة بين الشلالين الأول والثاني في زمن الدولة المصرية القديمة (حوالي 2680 - 2180 ق.م.)، ويستدلوا على ذلك بمعثورات بقايا عظمية - لكنها قليلة - من واقع التنقيبات. فنتج عن اختلاط العرقين الزنجي والمصري خلطة مختلفة ميّزت سكان المجموعة (ج) الذين سكنوا نفس المنطقة خلال الفترة 2200 - 1500 ق.م. (سميث، 1909، 25).

وهنا لابد لنا من وقفة عند مصطلح العرق المصري. يقصد الخبير سميث بمصطلح العرق المصري العرق القوقازي. فهو إذاً، مثل كثيرين من رصفائه، يفكر بنظرية الأعراق الثلاثة النقية؛ القوقازي والزنجي والمنغولي. هذه النظرية استمرت سائدة ومقبولة لوقت طويل، لكن في الآونة الأخيرة، نتيجة للتطور الكبير الذي حدث في علم الوراثة، تعرضت لنقد كثير يصب معظمه في خانة الرفض لكثير من الأسس التي بنيت عليها. إن الأسس التي على أساسها صُنف البشر لهذه التصنيفات الثلاث تتمثل في مجموعة خصائص من بينها لون البشرة، وطبيعة الشعر، وشكل الفكين والشفاه والجمجمة، وبعض القياسات للقامة وطول الرأس وعرضه، وأمور أخرى. وبالنسبة للهيكل القديمة التي فقدت خاصية لون البشرة يعتمد الخبراء على الخصائص الأخرى التي تعتمد قياسات العظام. فيما يتعلق بخصائص العرق الزنجي نجدهم يركّزون بشكل كبير على خاصية بروز الفكين التي يطلقون عليها

صفة الفقم (prognathism) وخاصة الشعر المفلفل أو الصوفي. جدير بالذكر أن بعض البعثات عثرت في بعض المواقع السودانية على جماجم محتفظة بشعر الرأس، كما سنبين لاحقاً. من البعثات التي عملت في مواقع الحضارتين (أ) و (ج) بعثة من جمهورية النمسا كان يرأسها عالم آثار اسمه يونكر. أكدت بعثة يونكر النتائج التي توصلت إليها بعثة إليوت سميث، وهي أن المنطقة بين الشلالين الأول والثاني كانت حتى نهاية حضارة المجموعة (أ) (2700 ق.م.) خالية من العنصر الزنجي ومأهولة بأقوام يصنفون عرقياً في خانة القوقازيين⁷، لكن بدأ تغلغل الزواج في المنطقة بعد نهاية الدولة المصرية الوسطى (انتهت حوالى سنة 1780 ق.م.). اعتمد يونكر في هذا الرأي الأخير على التماوير المصرية التي لم يظهر فيها حتى ذلك الوقت تصوير لزنجي، بل كان السودانيون ("نحساو" بالمصري) يصوِّرون بسحنات تشبه سحنات المصريين لحد كبير (يونكر، 1921، 126).

كثير من التقارير عن المادة العظمية البشرية من المواقع اللاحقة زمنياً للمجموعتين (أ) و (ج)، والواقعة جنوب الشلال الثاني جغرافياً، جاءت متوافقة مع التقارير السابقة، حيث أكدت على وجود عنصر هجين عبارة عن خليط من عناصر زنجية وأخرى قوقازية كانوا يعبرون عنه بالإنجليزية بلفظة "Negroid" التي لا تعتبر مطابقة للفظة "Negro".⁸ وقد كانت تلك التقارير تميّز بين مجموعات تغلب عليها الخصائص الزنجية، وبخاصة خاصية الفقم، ومجموعات تقل فيها الخصائص الزنجية. بل ونجد بعض التقارير تنسب جماجم بعض ملوك النبتيين للعرق القوقازي. في الفقرات التالية سأعطي نماذج من دراسات أجريت على مادة عظمية بشرية من ثلاث حضارات سودانية تعاقبت الواحدة تلو الأخرى هي: حضارة مملكة كرمة، وحضارة مملكة نبتة، وحضارة مملكة مروي.

دراسات أنثروبولوجية لمادة عظمية بشرية من بعض المواقع الكرمية

⁶ . هذه المنطقة شكّلت في الماضي جزءاً لا يتجزأ من السودان القديم. هذه الحقيقة تدعمها كل الوثائق المصرية القديمة ولا يختلف حولها العلماء، سواء أجنب أو مصريون. ومن هذا المنطلق جاء تحديدنا للحد الشمالي للسودان القديم في أسوان . للمزيد عن تاريخ وحضارة هاتين المجموعتين انظر: دفع الله (2011 ، 81-171).

⁷ . يونكر يستخدم لفظ "حاميين" كمترادف للفظ "قوقازيين". في الواقع هناك جدل كثير حول استخدامات هذا اللفظ لا يسمح المجال هنا بالخوض فيها. انظر مقالة يونكر: Junker, H. "The First Appearance of Negroes in History", *Journal of Egyptian Archaeology* 7, (1921), pp. 121-132, especially pp. 125-126.

كان مركز حضارة كرمة في موقع كرمة الحديثة الذي يقع على بعد بضعة كيلومترات جنوب الشلال الثالث. كما عثر على مواقع أخرى مهمة جداً مثل موقع صاي و صولب، ومواقع ثانوية عديدة تتوزع بين الشلال الثاني والرابع. زمنياً تؤرخ حضارة كرمة للفترة من 2500 - 1400 ق.م. تقريباً.⁹ في دراسة أنثروبولوجية أجرتها الخبيرة كريستين سايمون (Simon, 1980, 65-67) على عينة من الهياكل، جاءت نتيجة الدراسة أن تركيبة سكان كرمة العرقية في الألف الثانية ق.م. لا تختلف عن تركيبة سكانها الحاليي ؛ فقد تميّزت الجماعم بوجوه متوسطة أو طويلة وبدرجة متوسطة من الفقم. أما الشعر فقد تم العثور على نوعين منه لسيدتي : نوع مجعد يشبه شعر النوبيات الحديثات وآخر قصير مضفور بطريقة الأفارقة المعروفة (سايمون، 1980، الشكل رقم 1، ص 66).

دراسة أخرى أجراها الخبير لوي شو (Louis Chaix , 1984 , 27-30) خرجت بنتائج مماثلة لنتائج الأستاذة سايمون. فقد أكدت اختلاط الأعراق مع غلبة عرقين في مرحلة كرمة المبكرة؛ العرق الأول يمثلته أفراد ذوو جماعم ووجوه طويلة وأنوف ضيقة (قوقازي؟)، والثاني يمثلته أفراد ذوو جماعم قصيرة ووجوه متوسطة وأنوف كبيرة (زنجي). لك ، يقول الخبي، اختلط العرقان في مرحلة كرمة الكلاسيكية ليعطيانا عرقاً يمثل مرحلة وسطى بين القوقازي والزنجي، أفراد هذا العرق في رأي هذا الخبير أقرب للقوقازيين منهم للزنوج.

من جيل العلماء الأوائل الذين درسوا هياكل سكان كرمة، العالم النمساوي يونكر الذي قال إن شعب كرمة يتكوّن من خلطة عرقين، هما القوقازي (الحامي) والزنجي، وإن الزعماء والحكام بشكل خاص قوقازيون (يونكر، 1921، 127)

دراسات أنثروبولوجية لمادة عظمية بشرية من بعض المواقع النبتية

قامت أهم مراكز حضارة نبتة حول الشلال الرابع (الخرطة) في نوري، والبركل، ومروي، والكرو، خلال الفترة الزمنية 750 - 300 ق.م.¹⁰ مقارنة بما تم اكتشافه من مادة عظمية بشرية من مواقع الحضارات السودانية الأخرى، تعتبر المادة النبتية قليلة جداً ومتناثرة لدرجة أن عالم الأنثروبولوجيا ستروهل وصف الحقبة النبتية بأنها "مجهولة فيما يتعلق بالأحوال الأنثروبولوجية" (Strouhal, 1982:240). من هذا القليل هناك ثلاث جماعم جاءت من حفريات جبانة الكرو. الجمجمة الأولى عثر عليها في ركام أحدثه اللصوص الذين نهبوا مقبرة الملك النبتى شبتكو (حكم حوالي 702 - 690

⁸ . الدليل على ذلك وصف Seligmann (1913، 618) لجماعم المجموعة (ج) بأنها "Negroid but certainly not negro".

⁹ . للمزيد عن حضارة كرمة وتاريخها السياسي انظر، دفع الله، 2011، ص 187-249.

¹⁰ . للمزيد عن حضارة كرمة وتاريخها السياسي انظر، دفع الله ، 2005.

ق.م.) ومن ثم نسبت الجمجمة إليه. المجمعتان الأخريتان نسبتا لامرأتين من فترة عصر ما قبل قيام الملكية النبتية (850-750 ق.م.). أرسلت الجماجم الثلاث لمتحف بيبودي بجامعة هارفارد لدراستها والتقرير عنها. جاء التقرير بأن الجماجم الثلاث تصنف في النوع المسمى بـ"نوع ما قبل الأسرات المصري"، وهي السلالة المصرية البيضاء الأساسية، على حد قول الآثارى دنهم، التي تتمثل في أحسن صورها في الفترات المبكرة (دنهم Dunham ، 1950 ، 119).

من جبانة نوري، الهرم 13، عثرت بعثة رايزنر على عدة قطع من جمجمة من مقبرة الملك النبتى حرسيتوف (حكم حوالى 404-369 ق.م.) فحصها وعلق عليها الخبير بريس L.C.Briggs من متحف بيبودي للآثار والإثنولوجيا بجامعة هارفارد قائلاً: "إنها تشبه نوعاً أوروبياً بدائياً" (انظر دنهم ، 1955 ، 222). هذا التقرير رفضه الخبير ستروهل بحجة أن الأدلة التي اعتمد عليها بريس ليست كافية (Strouhal, 1982: 241).

نخلص مما ذكر في هذه الفقرة إلى أن الصورة عن الأعراق من الفترة النبتية غير واضحة بسبب نقص المادة العظمية من جماجم وغيرها.

دراسات أنثروبولوجية لمواد عظمية بشرية من بعض المواقع المروية

تؤرخ حضارة ومملكة مروية للفترة من 300 ق.م. - 350 م. وقد انتشرت مواقعها من قرية مديك في الشمال إلى جبل موية على النيل الأزرق (الخارطة). من أوائل البعثات التي عملت في مواقع مروية، بعثة إكلي كوكس (ECKLEY COXE) بقيادة ل. وولي L. Woolley و راندال ماكيفر R. (MacIver). وكان ذلك خلال الفترة 1907-1909. اختارت البعثة موقع كرونو السكاني وجبانته في عنيبة والذي يؤرخ للقرنين الثاني والثالث الميلاديين. كان تقرير البعثة عن المخلفات العظمية ونوع العرق الذي ينتمي إليه المدفونون في عنيبة أنهم "زنوج ومترنّجين"، وأن نسبة ضئيلة جداً فقط يمكن تصنيفها خارج هذين العرقين (وولي و راندال - ماكيفر ، 1910 ، 4). لكن يجب التنبيه إلى أن هذا التقرير ينسب للرجلين المذكورين، وهما خبراء آثار وليسا بخبراء هياكل بشرية، ويبدو أنهما اعتمدا في تقريرهما على الملاحظة فقط.

هناك دراسات لعينات مروية ارتبطت بالحملة الثانية لإنقاذ آثار النوبة أجراها الخبير بطراوي في العام 1935 على مواد عظمية من جبانات مروية تقع أيضاً في النصف الشمالي من منطقة النوبة السفلى (بين وادي السبوع وأدينان). جاء تقرير بطراوي مؤكداً على أن المرويين الذين سكنوا تلك المنطقة من السودان القديم كانوا يتكونون من عناصر متباينة لكن يغلب عليها العنصر المترنّج (Negroid) بخصائصه المعروفة مثل الأنف الكبيرة ، والجبين الضيق، والفم. أشار التقرير إلى

ملاحظة مهمة تتعلق بالشعر، وهي أنه في الحالات التي احتفظ الرأس بالشعر لم يكن من نوع شعر الزوج المعروف، (بطراوي ، 1935 ، 173)، مما يشير بوضوح لحدوث اختلاط بين عرقين، زنجي وقوقازي. توجد كذلك دراسات ارتبطت بالحملة الثالثة لإنقاذ آثار النوبة (خلال الستينات) أجرتها البعثة الإسكندنافية وأخذت عيناتها من جبانات في منطقة وادي حلفا. درس المادة العظمية الخبير نيلسين (Nielsen.1970) الذي أكد "تزنج" المرويين، وقال بحدوث تغييرات سكانية في نهاية الفترة المروية نتج عنها ازدياد في الخصائص الزنجية في فترة المجموعة (س) (نيلسين، 1970، 81). إذا اتجهنا جنوباً لنأخذ عينات من مقبرة مروية في موقع صولب بالقرب من الشلال الثالث يحدثنا الخبير ستروهل أنه قام بفحص 8 أفراد من هذه المقبرة فوجد أن خمسة منهم تغلب عليهم خصائص زنجية، الثلاثة الآخرين تغلب عليهم خصائص قوقازية (Strouhal, 1982, 245)

دراسات أنثروبولوجية من حقبة النوبيين واليمنيين (المجموعة (س)) 350-600م

سنقدم في هذه الفقرة مقتطفات من تقارير كتبها خبراء درسوا مخلفات عظمية جاءت بها تنقيبات حملات المسح الأثري الثلاث للنوبة. الحملة الأولى شملت عدة مواقع تقع بين الشلال الأول ووادي السبوع. جاء في تقرير الخبير إليوت سميث عن المادة العظمية التي عُثر عليها في الجبانة رقم 92 أن نتائجهم من هذه الجبانة تؤكد ما توصلوا إليه في الموسم السابق عن الخصائص العرقية للمجموعة (س) بأنهم "شعب أجنبي شديد الزنجية جاء من جهة الجنوب بشكل فجائي، جالِباً معه عادات دفنه وفخاره ... (Smith & Derry ، 1910 ، 12). ويضيفا في الصفحة نفسها: "ما يميّز شعب المجموعة (س) شدة الفقم والأنوف الفطحاء...."

قام بدراسة هياكل الحملة الثانية (بين وادي السبوع وأديندان) الخبير بطراوي. جاء في أحد تقاريره عن هياكل المجموعة (س): "يبدو جلياً أن مجتمع المجموعة (س) كان يتكون من مجموعتين زنجيتين والهجين الذي تكون جراء التزاوج والاختلاط بينهما" (بطراوي ، 1935 ، 175-176). تعاصرت مع حضارة المجموعة (س) في الشمال حضارة ما بعد مروي التي انتشرت جنوب الشلال الثالث وحتى موقع مروي القديمة. عثرت بعثة رايزنر أثناء حفرياتها في الكرو عام 1919 على 4 جماجم داخل قبور مقحمة في الجبانة الملكية تؤرخ بالتقريب للفترة 300-700 م. بعد دراستها في متحف بيبودي بجامعة هارفارد جاء التقرير بأن ثلاثاً منها من نوع زنجي، حيث أنها تظهر بروزاً واضحاً للفك الأسفل، وإن كانت تحتوي على خصائص قليلة غير زنجية" (دنهام، Dunham 1950 ، 119). وبقى في وسط السودان في منطقة البطانة حيث جرت تنقيبات بعثة

ألمانية من جامعة همبولدت في جبانة بموقع المصورات الصفراء تنتمي لحضارة ما بعد مروي.
أكدت الدراسة "تزئج" المجموعة المكونة من 7 أفراد (ستروهل ، 1982 ، 245).

2. النظرية الثانية: نظرية اختلاط العرقين القوقازي والزنجي

تشبه نظرية الأستاذ آركل، وهو خبير آثار له باع كبير في تاريخ التنقيب الأثري في السودان اسمه أ.ج. آركل (Arkell)، النظرية السابقة من حيث المنهج الذي يفترض أن سكان منطقة النيل الأوسط هم هجين نتج عن حدوث اختلاط بين عرقين أساسيين. أما الاختلاف بين نظرية آركل والأخرى فيمكن في أن العرقين المختلطين عنده هما الزنجي والبني (أو الأسمر: The Brown Race) أو ما يعرف أيضاً بجنس البحر المتوسط). يرى آركل أن السودانيين، وبخاصة صانعي الحضارتين (أ) و (ج) ، ينتمون لجنس أسماه "الجنس البني أو جنس البحر المتوسط"، وهو جنس، على حد قوله، يقع في وسط الطريق بين القوقازي والزنجي ويرجع مصدره للجزيرة العربية. ويعتقد آركل أن هذا الجنس وصل لأجزاء من القارة الإفريقية عبر موجات من الهجرات في أوقات مختلفة. وينتمي لهذا الجنس كذلك، بحسب آركل، قبائل البجة في شرق السودان والعبادة والصوماليون (آركل ، 1960 ، 37 و 46). يشترك الجنس البني مع الزنجي في بعض الخواص مثل خاصية الرأس الطويلة؛ أما الاختلافات بين الجنسين فتتمثل في طبيعة الشعر ولون البشرة؛ ففي الجنس البني يكون الشعر أسوداً مرسلاً أو مموجاً، وتكون البشرة فاتحة تتدرج في درجات اللون البني، بينما في الزنجي تكون البشرة سوداء، ويكون الشعر قصيراً أو مفللاً (آركل ، 1960 ، 24).

3. النظرية الثالثة: نظرية عدم اختلاط الأعراق

ظهر في السبعينات من القرن الماضي فئة من علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية انتقدت منهج زملائهم في قراءة التاريخ البيولوجي لمنطقة النيل الأوسط. من هؤلاء الخبير قرين (Greene) والخبير جرفن (Gerven). وبينما ظلت نظرية اختلاط الأعراق تشغل فريقاً آخر من الخبراء المعاصرين لهم مثل ستروهل (Strouhal) وغيره، يرى قرين وجرفن (اعتماداً على ما ذكره عنهما تريقر ، Trigger ، 1978 ، 29) أن استخدام المادة الهيكلية لإنشاء التاريخ البيولوجي لمنطقة ما يحتاج لمعلومات دقيقة ومفصلة عن البقايا العظمية، وهذه المعلومات لم تتوفر لأولئك الخبراء. ليس ذلك فحسب، بل أن الأمر، في رأي الخبيرين، يحتاج كذلك لمادة مقارنة من مواقع متقاربة من بعضها البعض. بالإضافة لكل ذلك يجب أن تكون المقارنة مع دلائل مأخوذة من الفترة الزمنية نفسها، ولا يجوز الوصول لنتائج مبنية على مقارنة مادة عظمية تنتمي لشعوب قديمة بأخرى تنتمي لشعوب حديثة (وهذا كان يحدث في دراسات أجريت في وقت سابق). ويؤكد الأستاذ جرفن على أهمية التمييز بين تطورات تحدث

نتيجة لعلاقات تاريخية وتطورات تنشأ نتيجة لعملية الانتقاء الطبيعي أو لظروف بيئية. ويعطي كمثال خاصية الفقم (بروز الفكين) ويتشكك في كونها مؤشراً على الزوجية، ولا يستبعد أن يكون التغيير في شكل الفكين ناتج عن عملية الانتقاء الطبيعي حدثت نتيجة لتغيير في عادات الطعام، كالتحول من مجتمع كان معتمداً على الرعي لمجتمع أصبح يعتمد على الزراعة مثلاً. ويتحدث عن الاختلاط بين الأعراق نتيجة للتزاوج قائلًا: "إن مثل هذا الاختلاط ينتج عنه توزيع للجينات بشكل عشوائي في السكان، ولا ينتج عنه تجميع للجينات في مجموعات محددة" (مذكور في تريقر ، المرجع نفسه ، 29).

4. النظرية الرابعة: نظرية "نوع شمال السودان".

تبناها خبراء في الآثار السودانية؛ بعبارة أخرى هم ليسوا خبراء في مجال الأنثروبولوجيا الطبيعية ولكن بحكم عملهم في تنقيبات المدافن ومشاهدة الجثث المحنطة وشبه المحنطة المحتفظة بملاحم الوجوه وأحياناً الشعر، وبالتأكيد بحكم بحثهم واطلاعهم الواسع ومناقشاتهم مع المختصين، نتيجة لكل ذلك تكونت لديهم خبرة جيدة تؤهلهم لإبداء آراء متوازنة حول أصحاب الهياكل والجماجم التي يشاهدونها، وكذلك حول الآراء والنظريات التي دُبجت بشأنهم. يلتقي أصحاب هذه النظرية في رفضهم لنظرية اختلاط الأعراق، وفي اعتقادهم بأن الصنف نفسه من السكان عاش في المنطقة نفسها منذ 5 آلاف سنة مضت أو يزيد، وأن ما كان يحدث من تغيير في تركيبة السكان هو عملية تطور طبيعي خضعت لمؤثرات محلية خلال فترات محددة.

من هؤلاء الأخيرين الخبير في الآثار بيتر شيني. أبدى شيني تحفظاً واضحاً على النتائج التي توصل إليها علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية بشأن قدماء السودانين محتجاً بعدم كفاية العينات من الهياكل البشرية. وقال إن ملاحظاته الشخصية لعدد من الجثامين لقدماء السودانين المحتفظة بملاحمها توحى بأن أولئك القدماء يشبهون سكان المنطقة الحاليين (شيني، 1967 ، 154). أما الخبير بروس تريقر (1978 ، 29 & 35) فيعتقد أن منطقة النيل الأوسط حافظت على نوع جسماني (physical type) تميزت به يمكن أن نطلق عليه ببساطة مسمى "نوع شمال السودان". سكن هذا النوع المنطقة باستمرار خلال العصر التاريخي، ويخلص إلى أنه "لا يوجد دليل يشير إلى أن هذا الشعب نتاج لخلطة أعراق مختلفة"¹¹. لكنه يستدرك ويقول: "وإذا كان هناك اختلاط، فإنه

يكون قد حدث في أزمان موعلة في القدم، وبالتالي ليس له قيمة تاريخية بالنسبة لحقبة الخمسة آلاف سنة الأخيرة (المرجع نفسه، 35).

ونختم استعراضنا للنظريات بالانتقادات التي وجَّهها الخبير الآثاري السوداني أحمد الحاكم للنظرية الأولى، حيث أوضح أن تلك النظرية كان لها انعكاسات خطيرة على سكان السودان؛ فهي التي عمَّقت مفاهيم ثنائية الأصول السكانية بالسودان (الحاكم، 1990، 27). وأشار الحاكم إلى قرارات قد صدرت عن مؤتمر عقد تحت إشراف مؤسسة اليونسكو أعلن من خلالها أن السلالات العرقية ما هي إلا خرافات وأوهام لا توجد إلا داخل أنظمة اجتماعية، وليست هي بحقائق علمية (الحاكم، 28). ولم يفت على الحاكم التنويه بالتطور التقني الكبير الذي أحدثه علم الوراثة (الجينات) في الاستدلال على مواصفات وخصائص المجموعات السكانية. حيث مكنت هذه التقنيات العلماء من دراسة الخصائص التشريحية وأشكال العظام لإظهار المظاهر الوراثة المميَّزة. ويمكن بواسطتها تحديد مكون وراثي يتردد باضطراب في العينة، وفي تناسق واضح، بحيث يمكن أن يستدل منه على تركيبة البناء السكاني للمجموعة (الحاكم، المرجع نفسه، 30). وفي إشارة للتاريخ السكاني لمنطقة النيل الأوسط قال الحاكم إنه يمكن تفسير التغيرات التي تنشأ داخل تركيبة البناء السكاني الأساسية على أنها عملية تطور طبيعي للعوامل الوراثة والمورثات لعبت فيها عوامل أخرى (مثل الانتقاء الطبيعي، التكيف مع عوامل البيئة إلخ) أدواراً مهمة.

تعقيب:

1. ما يلاحظ على آراء أصحاب النظرية الأولى أنهم واقعون تحت تأثير أفكار واتجاهات كانت سائدة في عصرهم (العقود الأولى من القرن الماضي). كانت العرقية سائدة ومعها الاستعمار والقوى العظمى تحمي سدننتها.
2. كانوا كذلك، أو بعضهم على الأقل، متأثرين بلواء بعض رجال الآثار العرقيين من أمثال رايزنر، الذين كانوا يعتقدون أن السود والزنج غير قادرين على صنع الحضارات. فمعلوم أن رايزنر لم يصدِّق ما اكتشفه في كرمة من حضارة فيها الكثير من العناصر الراقية فقال إن حكام كرمة مصريون. وكان رايزنر يتوقع أن يتدنى المستوى الحضاري للسودانيين كلما اتجهت التنقيبات جنوباً (انظر دفع الله، 2011، 206-210).
3. لنفس الأسباب نسب رايزنر الملوك النبتيين (الأسرة 25) لأصل ليبي، يريد أن ينسبهم لعرق "قوقازي". وربما تحت تأثير نظرية رايزنر هذه جاء خبير متحف بيبودي وقال إن الملك شبتكو من سلالة بيضاء. ونحن نرى أن نتيجة متحف بيبودي بخصوص جمجمة الملك شبتكو تبدو شاذة

وغربية، خاصة إذا ما قورنت مع كل التقارير الأخرى من المواقع المختلفة. ذلك لأن المعروف تاريخياً أن شبتكو هو أحد أبناء الملك السوداني بعانخي. وحتى لو افترضنا أن والده شبتكو كانت "قوقازية" الأصول فلن يأتي ابنها مثلها تماماً بأي حال من الأحوال لكون والده "مترنّجاً". أما النتيجة بشأن المرأتين فيمكن قبولها لوجود احتمال بأنهما ربما كانتا زوجتين أجنبيتين من أصل "قوقازي" لزعيم أو زعيمين من زعماء الأسلاف في الكرو. خلاصة القول إن بعض الخبراء لم يلتزموا في أبحاثهم النزاهة والحيدة والأمانة العلمية.

4- من جانب آخر بدا لنا الفريق المعارض للنظرية الأولى، وخاصة الأستاذ تريقر، كأنه يعارضها لشعوره بالحرَج، أو تمشياً مع روح العصر الذي شهد انقلاباً على أطروحات القائلين بوجود أعراق أساسية، من أمثال إليوت سميث وهيرمان يونكر ومؤيديهم .

5. إننا نرى أن تقرير تريقر بعدم وجود دليل على اختلاط "عريقي" في تركيبة سكان النيل الأوسط غير مقبول لأنه يجافي الحقائق التاريخية والآثارية. فمعلوم من الوثائق والآثار إقامة المصريين في السودان حتى منطقة الشلال الرابع في فترة الاحتلال المصري للسودان زمن الدولة المصرية الحديثة والذي استمر حوالي 500 عام. ويتفق كثير من الكتاب أنه حدث أثناء تلك الإقامة كثير من الاختلاط بالتزاوج بين رجال مصريين ونساء سودانيات. وقد أقام المصريون قبل هذا التاريخ وبعده في السودان لفترات أقصر ومتقطعة. وهناك الاختلاط العادي على مستوى الأفراد، ولا نستثني الملوك، ولدينا الأدلة الكتابية التي تثبتته.¹² ولم يكن الاختلاط مقصوراً بين السودانيين وجيرانهم من الشمال فقط، بل شمل كل الجيران من كل الجهات. كما لم تكن التحركات البشرية تأتي للمنطقة فحسب، بل كانت هناك بالمثل تحركات منها إلى مناطق خارجها.

¹¹ . رأيت أنه من المستحسن إثبات المقولة بكلمات المؤلف الأصلية وهي:

"This population has occupied the middle portion of the Nile Valley throughout recorded history and probably for much longer. There is no evidence to suggest that it is the result of a mixing of different racial stock" (Trigger, '978, 35) .

في كل المقال تفادى الكاتب استخدام لفظة "عرق" ، وحاول إيجاد بدائل لها إلا في هذا المقام.

¹² . من الحكايات الطريفة عن هجرة آلاف المصريين للسودان ما ذكره المؤرخ هيرودت عن جنود الملك بسماتيك الأول (حكم حوالي 664-610 ق.م.) الذين بلغ عددهم 240000 جندي كانوا مكلفين بحراسة حدود مصر الجنوبية، ولما طال بهم المكوث ولم يتم تبديلهم بآخرين ثاروا على حكومتهم وذهبوا غضبانين للملك السوداني في مروي الذي تفضل عليهم بأراضٍ واسعة ومن ثم طاب لهم المقام وتزوجوا بسودانيات (إيدي وآخرون، 1994، 309) . ونحن نعتقد أن كثيراً من الاختلاط كان يحدث في المنطقة الحدودية في كل الأوقات.

6- تتفق الكاتبة مع تريقر في فكرة رفض وجود عرق قوقازي نقي أو عرق زنجي نقي أو أي عرق آخر نقي، وتعتقد أنه لا يوجد اليوم من العلماء "المحترمين" من يعتقد بوجود أعراق نقية أو حتى أعراق أساسية في أي وقت من الأوقات. لكن بالتأكيد يوجد تنوع في الجنس البشري عموماً، وهناك حاجة لتصنيفه. ونسبة لما لاحظناه من تخرج الكتاب من استخدام لفظة عرق/جنس/سلالة، فإننا نطرح الأسئلة الآتية: هل بالإمكان إزالة لفظة عرق/ جنس/ سلالة من القاموس؟ وما الألفاظ البديلة لها؟

7- تتفق الكاتبة مع شيني وتريقر والحاكم في تصورهم لسكان منطقة النيل الأوسط القدماء بأنهم يشبهون لحد كبير السكان الذين يسكنون المنطقة نفسها اليوم؛ ويمكن تخيل ألوان بشرتهم التي كانت تتدرج من الأسمر الفاتح (لدرجة البياض) للبني الفاتح، للبني الغامق، ثم الأسود. أما الشعر فيتراوح كذلك بين مرسل طويل، لمجعد ناعم، ثم مجعد خشن أو مففل. كما بالإمكان تخيل أشكال أنوفهم وشفاههم وبنياتهم. ولا بأس من أن نطلق على هذا الشعب "نوع شمال السودان" كما اقترح تريقر ونتفادى بذلك استخدام ألفاظ مثل عرق أو سلالة وما شابهها التي أصبحت بمثابة وصمة عار لمن يستخدمها. لكن كما قال تريقر نفسه فإن آراءه وزميلييه (شيني والحاكم) ستظل "انطباع رجال آثار" (it is the impression of archeologists (Trigger, 1978, 29)).

أخلص من كل ذلك إلى أن ما طرحه أصحاب النظرية الثالثة هو الأصوب، وعلى علماء السودان أن يجتهدوا في توفير المتطلبات التي تحتاجها الأبحاث العصرية الحديثة. أما سكان منطقة النيل الأوسط القدماء فقد كانوا صناع حضارات نافسوا بإنجازاتهم المادية والفكرية العالم المتحضر آنذاك، وأقاموا لفترة من الزمن (70 عاماً) إمبراطورية سيطرت على كل الوادي النيلي، من الدلتا في الشمال لكوستي وجبل موية في الجنوب. ودخلت جحافلهم فلسطين في محاولة لعرقلة المد الآشوري على أطراف الإمبراطورية الشمالية الشرقية.

قائمة المراجع

أولاً المراجع الأجنبية

- Arkell, A.J. *A History of the Sudan to 1821*. London, 1960
Batrawi, A.M. *Report on the Human Remains*. Cairo, 1935
Chaix, L. "Etude anthropologique préliminaire sur la matériel de Kerma". *Geneva* xxxi, 1984: 27-30.
Dunham, D. *Royal Cemeteries of Kush. I. Elkurru*. Boston, 1950
-----*Royal Cemeteries of Kush. II. Nuri*. Boston, 1955
Eide et al. *Fontes Historiae Nubiorum*, Vol. I., Bergen, 1994
Egyptian Archaeology 7, 1921: 121- Junker, H. "The First Appearance of Negroes in History". *Journal of*
132.
http://w.w.racialcompact.com/races_of_humanity.html. McCulloch, R. "Races of Humanity".

- Variations. (The Nielsen, O.V. Human Remains, Metrical and Non-Metrical Scandinavian Joint Expedition to Nubia 9). Odense, 1970.
- Seligman, C.G. "Some Aspects of the Hamitic Problem in the Anglo-Egyptian Sudan". *Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*, 43, Jul-Dec. 1913: 593-705.
- Shinnie, P. *Meroe: A Civilization of the Sudan*. London, 1967.
- Nubia Bulletin*, N0. 3, 1909: 21-27 Smith, E. "Anatomical Report (A)". *The Archaeological Survey of* (Cairo).
- "The People of Egypt" *Cairo Scientific Journal*, No. 30, 1909: 56-57.
- Smith, E & "Anatomical Report". *The Archaeological Survey of Bulletin*, No. 5, 1910: 21-27 (Cairo). *Nubia Derry*
- E "The Physical Anthropology of the Meroitic Area". *Meroitica* 6, 1982: 237-264 Strouhal.
- Trigger, B.G. "Nubian, Negro, Black, Nilotic". In Hoschfield (ed.): *Africa in Antiquity. I. The Essays*. Brooklyn, 1978: 27-35.
- Karanog: *The Romano-Nubian Cemetery*. Woolley, C.L & Philadelphia, 1910 R. MacIver

ثانياً: المراجع العربية

- أحمد، مبارك عبد الرحمن "مشكلة الهوية في شمال السودان". كاودا. 2009. (انترنت).
- الحاكم، أحمد محمد علي هوية السودان الثقافية. منظور تاريخي. الخرطوم، 1990.
- دفع الله، سامية بشير تاريخ مملكة كوش (نبته ومروي). الخرطوم، 2005.
- دفع الله، سامية بشير تاريخ الحضارات السودانية القديمة. ط. 2، الخرطوم، 2011.
- عبد القادر محمود عبدالله وآخرون "السودان القديم، اختلاط الأسماء ودلالات المفاهيم"، دراسات في آثار الوطن العربي 2 (كتاب المؤتمر الرابع للآثار بين العرب). القاهرة، 2001.